ARABIA
Revue pluridisciplinaire d'études arabes et moyen-orientales

arabia.revue@gmail.com

أهمية اللغة في توحيد المجتمع

Bachir DAHMANI

Université de Lille, chercheur dans le laboratoire CECILLE (Université de Lille).

تعدّ اللغة ميزة من أهم المميزات الأساسية التي يتسم بها الإنسان. ترتبط اللغة بصورة وثيقة بالإنسان وبيئته ومحيطه ومجتمعه، يعبر بواسطتها عن أحاسيسه ومشاعره ومتطلباته، وبفضلها يستطيع أن يحقق وجوده في المجتمع الذي يعيش فيه. فكيف يكون مصير المجتمع الذي يتكلم فيه أفراده لغات مختلفة، كل فرد يريد أن يتمسك بلغة م، مناصرا لها.

لقد صدق الرئيس الفرنسي الراحل فرنسوا ميتران لما قال في مؤتمر الدول الفرانكفونية المنعقد في بساحل العاج سنة 1989 "شعب بدون لغة شعب بدون حرية". وهذا صحيح، لان اللغة هي العنصر الأساسي والركيزة الدائمة لبناء أي مجتمع كان. وحافظ إبراهيم أكد على هذه الميزة الأساسية بقوله "فأما اللغة فهي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها". والجميع يعلم أن اليهود كانوا يتكلمون اللغة العبرية التي هي شقيقة العربية والآرامية، كل هذه اللغات تنتمي إلى فصيلة اللغات الحامية السامية، لما ولد عيسى ، هجر اليهود اللغة العبرية وأصبحوا يتكلمون بالآرامية. ومن حوالي سبعين سنة تقريبا أحيا اليهود هذه اللغة التي بادت منذ عدة قرون وأصبحت اليوم تستخدم في المجال العلمي وتدرس في الجامعات. وحجتهم في ذلك انه لا يمكن أن تكون لديهم دولة قائمة بذاتها بدون لغة توحدهم. إذا من خلال ما تقدم يمكن أن أقول إن اللغة تعد إحدى العناصر الأساسية التي توحد المجتمع وتجعله متماسكا. والدليل على ذلك أن الثورة الفرنسية سنة 1789 حاربت اللهجات بأنواعها وأقرت على وجود لغة واحدة تجمع كل المواطنين الفرنسيين. إن وحدة اللغة عامل من العوامل المهمة في انتشار الثقافة و ازدهار الحضارة. يقول كمال محمد بشير في هذا المجال "من الصعب جدا – إن لم يكن من المستحيل – أن تتحد أمة من الأمم أو تظهر قومية من القوميات و تقوى، بدون ارتكاز إلى لغة موحدة، تجمع بين أبناء هذه الأمة وتوحد بين مشاعرهم وعواطفهم، ومن ثم تقودهم يد واحدة و قلب واحد إلى أمالهم و أهدافهم و ما ذلك إلا لان اللغة الموحدة تمثل نوعا من التماثيل في الرأي والفكر، وضربا من التشابه في السلوك و أساليب العيش، أو قل : إن وحدة اللغة هي سبيل وحدة الثقافة، وتقارب وجهات النظر في الحياة، و عامل من عوامل تكوين الشعور بوحدة الآمال والآلام".[1]

ما يحدث في المجتمع المغاربي بصفة عامة والمجتمع الجزائري بصفة خاصة من صراعات لغوية لأمر خطير يهدد كيان هذه المجتمعات على المدى القصير وينذر بتقسيمه إلى أقاليم متفرقة، كل إقليم ينادي باعتماد لغته.

مما لا يخفى على أحد أن منطقة المغرب العربي خضعت للاستعمار الفرنسي وطبيعة هذا الاستعمار اختلفت في حدته وشدته وقساوته من منطقة إلى أخرى.

إن الاستعمار الفرنسي لما وطأ أرض الجزائر سنة 1830 أراد أن يطبق أربعة نقاط أساسية لا غير ألا وهي الفرنسة والتنصير والتجهيل والتفقير. ولقد نجحت فرنسا في تطبيق سياستها إلى حد كبير طوال وجودها في الجزائر. ولا أحد منا يستطيع أن ينكر ذلك. لا يسمح لنا موضوع بحثنا أن نشرح تلك المفاهيم المتمثلة في التجهيل والتنصير والتفقير لأنها عناصر تحتاج إلى دراسة دقيقة وعميقة، بيد أننا ملزمون في هذا البحث أن نسلط الضوء على الجانب اللغوي وما خلفته فرنسا من أثار سلبية في هذا المجال والتي مازال يعاني منها الشعب الجزائري حتى يومنا هذا.

فبعد صراع مرير وكفاح طويل حصلت الجزائر على استقلالها سنة 1962، دولة حديثة النشأة، فتية العهد، ينقصها أشياء كثيرة، في مجالات عديدة ومتنوعة ومن بين هذه المجالات المجال التربوي – المدرسة التربية -. أغلبية الأساتذة الذين كانوا يديرون المدرسة الجزائرية في تلك الفترة من الزمن هم من دعاة الفرنسية. فاللغة الفرنسية ليست لغة ثقافة بالنسبة لهذا الشعب لأنه لا يتكلمها بالأصالة.

خرجت فرنسا من الجزائر وتركت وراءها قنبلة من العيار الثقيل، استعمار جديد، استعمار لغوي وثقافي مثلما فعلت قبل ذلك في الكبيك. لقد ظلت هذه المقاطعة تحت السيطرة الفرنسية لمدة قرنين كاملين، ولما خرج الفرنسيون منها بقيت لغتهم منتشرة في المجتمع كلغة ثقافة وإدارة. وتعصب سكان هذه المنطقة للغة الفرنسية واتخذوها لغة قومية لهم على الرغم من وجود لغة أخرى تنافس اللغة الفرنسية ألا وهي اللغة الإنجليزية. اشتد الصراع بين أفراد المجتمع وما يزال مستمرا حتى الآن بين مؤيد ومعارض للغة الفرنسية في هذا البلد. هذا الصراع أصبح يهدد الوحدة الوطنية وبدأ يأخذ منعرجا خطير تحت ضغط وتأثير بعض العوامل والتأثيرات السياسية. أصبح يشكل هذا الصراع صداعا للكنديين يوما بعد يوم في ظل الصراعات القائمة بين التيارين العالميين التيار الفرانكفوني من جهة والتيار الانجلوفوني من جهة أخرى.

الأمر نفسه ينطبق على الدولة البلجيكية. هذه الدولة الصغيرة التي انفصلت عن هولندا سنة 1830، كانت اللغة الفالونية هي السائدة آنذاك غير أن الفالونيين لم يستسلموا بهذه السهولة وطالبوا بمقتضى قانون صدر سنة 1878 ينص على أن تكون كل التنظيمات الإدارية باللغتين الفالونية والفلامانكية. ومنذ ذلك العهد أصبحت حرب اللغات تهدد مستقبل بلجيكا كدولة موحدة.

أعود وأقول إن الشعب الجزائري اعتنق الإسلام منذ عدة قرون، ليتخذه دينا وشريعة له، ولا يتم ذلك إلا بعد فهم التعاليم الإسلامية. وفهم هذه التعاليم الإسلامية لا يتم إلا بعد معرفة اللغة العربية، التي هي لغة القران والحديث. فالاستعمار الفرنسي بذل كل ما في وسعه لطمس هذه المعالم ومنع تعليم اللغة العربية ولما اعترف بأنه وجد صعوبة كبيرة للقضاء عليها فرضت السلطات الفرنسية على معلمي هذه اللغة الحصول على رخصة تسمح لهم بتعليمها وفق شروط معينة. كانت مادة التعليم تتعلق في أغلبها في تعليم القران وكانت هذه الأوقات محددة من طلوع الفجر إلى الساعة الثامنة صباحا، ومن الرابعة مساء إلى وقت صلاة العشاء. أما الأوقات ما بين الساعة الثامنة إلى الرابعة فهي من حظ اللغة الفرنسية. كما قامت فرنسا بإنشاء عدة مدارس في المدن الكبرى لتتمكن من فرنسة هذا الشعب وتمسيحه. إلا أن هذا الشعب أبى إلا أن يظل عربي اللسان. وقالها عبد الحميد بن باديس :

شـــعب الجزائـــــري مســـلم	وإلى العـــروبـــة ينــــتســـب

لست متعصبا لأحادية اللغة بل بالعكس نحن نعيش اليوم في عصر العولمة، أين يتطلب منا استعمال عدة لغات وإتقانها، ولذلك نطالب ونلح على تعلم اللغات الأجنبية كما صفي الدين الحلي:

بقدر لغات المرء يكثر نفعـــــــه	وتلك له عند الشدائد أعوان
فبادر إلى حفظ اللسان مســـارعا	فكل لسان في الحقيقة إنسان

يقول القرآن "وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[2] ويقول أيضا " وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه، لبين لهم"[3] والرسول محمد أمر زيد بن ثابت بتعلم عدة لغات منها السريالية والعبرانية[4]. أليس هو القائل "من تعلم لغة قوم امن شرهم". فتعلم اللغات الأجنبية أمر ضروري لجميع الأفراد والشعوب، لان هذه الشعوب مرتبطة فيما بعضها البعض بمصالح اقتصادية وسياسية وثقافية وما شابه ذلك. غير أنني أريد أن أركز على شيء مهم هو أن تعلم هذه اللغات حق وأمر ضروري ولكن ليس على حساب اللغة العربية. وإذا كان بعض السياسيين لا يؤمنون باللغة العربية، ولا يهتمون بها ولا يوفرون لها الإمكانيات اللازمة والضرورية لتطورها، فلا يمكن أن ننتظر منها أن تتطور وتبلغ أوج عزها مثلما كان عليه الأمر في السابق، في العهد الأموي والعباسي والأندلسي. ففي العصر العباسي مثلا وأثناء حكم الخليفة هارون الرشيد ارتفع شأن يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني الذي قام بترجمة الكتب القديمة إلى اللغة العربية. كما قام يوحنا البطريق في زمن المأمون بالعمل نفسه. وفي عهد الخليفة المتوكل اشتهر حنين بن إسحاق بترجمة كتب أرسطو وكان يعد من أكبر المترجمين وعرف بفصاحة

اللسان ودقة العبارة. مثله مثل قسطا البعلبكي الذي استقدمه الخلفاء إلى بغداد لأجل الترجمة وإعطاء نفس جديد للغة العربية الفصحى.

أرادت السلطة الحاكمة غداة الاستقلال في الجزائر في سنة 1962 أن تقوم بنفس العمل الذي قام به الأمويون و العباسيون. فلجئوا إلى سياسة التعريب. فوجهت الدعوة إلى أساتذة في المشرق العربي من سوريين ومصريين وعراقيين ليساهموا في هذه العملية. ولكن السؤال الذي كان ينبغي أن يطرح آنذاك ماذا كان يجب تعريبه، اللغة أم الفكر ؟ فعملية التعريب كان من الأفضل أن تكون تدريجا وليست دفعة واحدة. لان هذه العملية تحتاج إلى وسائل وإمكانيات لم تكن تملكها الدولة الجزائرية آنذاك. والغريب في الأمر أن الدولة كانت تبعث بطلابها إلى الدول الغربية قصد التكوين والدراسة وعند عودتهم إلى أرض الوطن كانت تفرض عليهم أن يدرسوا باللغة العربية. كانت سياسة التعريب سياسة فاشلة بكل ما تحمله الكلمة من معنى ودلالة. يشير رشيد ميموني إلى المشاكل التي كان يتخبط فيها بعض المسئولين الساهرين على هذه السياسة على حد قوله "لقد درست بالمدرسة العليا للتجارة بالجزائر العاصمة. أود أن أقص عليكم المشكلة التي تعرضت لها هذه المدرسة. لقد قامت إدارة المدرسة بتعريب شهادة الليسانس والتي يتم تحضيرها في ظرف أربع سنوات. بعد التخرج تفاجأ طلابنا برفض طلباتهم للحصول على وظيفة في البنوك والمؤسسات الإدارية لأن هذه الأخيرة ما زالت تستعمل اللغة الفرنسية كلغة عمل في الإدارة. ولحل هذه المشكلة قرر مدير المدرسة أن يفتح فرعا جديدا لمدة سنتين لتمكين الطلاب من تعلم المصطلحات باللغة الفرنسية. بعد عامين أصدرت الدولة قانونا بتعميم اللغة العربية."[5]

وهكذا بدأ التعليم في الجزائر يأخذ بعض المنعرجات الخطيرة نتيجة السياسة العرجاء المتبعة من قبل المسئولين. واشتد الصراع بين المفرنسين والمعربين. فدعاة الفرنسية يرون أن اللغة الفرنسية لغة سهلة، سريعة التعلم، سلسة الفهم واللغة العربية لغة صعبة التعلم، لغة عاجزة لا تواكب التطور العلمي والحضاري. انعكست هذه الظاهرة على المجتمع الجزائري فأصبحنا نلاحظ أن الأم تتكلم مع ابنها باللغة الفرنسية لتثبت أنها تنتمي إلى طبقة راقية، والمدير يكلم عماله باللغة الفرنسية ليثبت هيمنته وسيطرته. وأصبحت هناك فوارق اجتماعية متباينة فالطبقة الغنية تضع أبناءها في مدارس فرنسية والطبقة الفقيرة تضع أبناءها في مدارس حكومية معربة، في اعتقادهم أن المدارس المفرنسة تضمن لهؤلاء مستقبل أفضل. في حين ظهرت طائفة أخرى تنادي بإدراج العامية في التعليم الابتدائي بدلا من الفصحى التي تعطل التفكير. وهذه الظاهرة كادت آن تطبق في جميع المدارس الابتدائية سنة 2016 لولا تدخل جمعية العلماء المسلمين.

إذا نظرنا إلى هذه المسألة بمنظار واقعي نجد أن الدعوة إلى العامية ليست حديثة العهد، بل هي فكرة قديمة نادى بها بعض الدعاة في الغرب أمثال وليام سبيت سنة 1880 بإصدار كتابه "قواعد العربية العامية في مصر". وفي سنة 1893 ألقى وليام ولكوكس محاضرة في مصر بعنوان " لِمَ لَمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن"[6]. وعلل ذلك بأن سبب تأخر المصريين يرجع إلى انشغالهم باللغة الفصحى. كما سلك سلدوم ويلمور نفس الدرب بإصدار كتاب عن العامية المصرية بعنوان العربية المحكية في مصر. وظهرت طائفة من المفكرين في العالم العربي أيدت هذه الفكرة جملة وتفصيلا، وعلى رأسهم أنيس فريحة وإسكندر المعلوف وأحمد لطفي السيد والأب مارون غصن وغيرهم كثيرون. لقد كتب أنيس فريحة كتابا بعنوان "نحو عربية ميسرة" دعا فيه إلى أن تصبح لدينا لغة واحدة هي لغة الحياة"، وكتب إسكندر المعلوف في هذا المجال أيضا وأعطى اللغة العامية أكثر مما تستحق حتى امن بصحتها، ولطفي السيد الذي قال بأن الطريقة الوحيدة لإحياء اللغة العربية هو إحياء لغة الرأي العام واستعمالها في الكتابة.

لقد تأثر المجتمع العربي سلبا بصفة عامة والمجتمع الجزائري بصفة خاصة بهذه الأفكار وظهر هذا التأثر جليا في الفكر والتربية والشخصية والأخلاق وغيرها. فأصبح التلميذ لا يهتم بلغة فكره، وكثيرا من الوعاظ ورجال السياسة عندما يظهرون على شاشات التلفاز لا يهتمون بالتراكيب وبالتالي لا يستطيعون أن يصلوا أفكارهم بدقة. فنراهم يلجئون إلى استعمال العامية أو اللغة الفرنسية في أغلب الأوقات. وبالتالي يصبح المجتمع يسير نحو استعمال لغة هجينة. يقول أحمد الشايب في كتابه الأسلوب الأدبي بأن العامية ليست لغة رسمية ولا يعد أدبها أدبا رسميا على أنها مثال يحتذيه المثقفون وذلك لشيوع الخطأ اللفظي فيها. فكلما نادى هؤلاء بهذه الفكرة وجددوا الدعوة لاعتماد العامية في التعليم تظهر طائفة أخرى لتحاربها.

[1]كمال محمد بشير. *قضايا لغوية*. القاهرة، مطبعة دار الطباعة القومية. 1962. ص. 89

[2] الحجرات 13

[3]إبراهيم 4

[4]أنظر المستدرك للحاكم، ة السنن لأبي داوود، والإصابة لا بن حجر العسقلاني

[5] Rachid Mimouni, *De la barbarie en général et de l'intégrisme en particulier*, Paris, Le pré aux clercs, 1992 p. 87.

[6]اميل بديع يعقوب، *فقه اللغة العربية و خصائصها*، بيروت، دار العلم للملايين، 1986 ص 151